**المحور الثالث**

**انتقال المذاهب الإسلامية إلى السودان الغربي**

**تمهيد:**

رغم أن التاريخ الإسلامي للسودان الغربي قد ارتبط بالمذهب السني المالكي، حيث مثّل هذا المذهب المسلك الإسلامي الذي رافق انتشار الإسلام في الغرب الإفريقي بعد إتمام فتح المغرب، وقامت عليه كل الحركات الإسلامية الإصلاحية في العصور الحديثة والمعاصرة، مثل حركة الشيخ عثمان دان فوديو، و الحاج عمر تال في بلاد التِّكرور، وحركة ساموري توري في بلاد المندينغ ، إلا أنه لم يكن هو المذهب الوحيد الذي عرفه السودانيون، فكما انتقل الإسلام و معه الثقافة العربية الإسلامية إلى ما وراء الصحراء، انتقلت إليه التيارات المذهبية السائدة في المشرق الإسلامي بعد أن أصبح السودان الغربي جزء من العالم الإسلامي.

لكن المصادر التاريخية و حتى الدراسات الأكاديمية الحديثة المختصة بتاريخ هذه المنطقة لا تشعرنا بوجود مذاهب أخرى في بلاد السودان الغربي غير المذهب السني المالكي، رغم دورها الديني و العلمي و الاقتصادي الذي لا يمكن تجاوزه. لهذا حاولت في هذه الدراسة أن أبيّن دور تواجد المذاهب الإسلامية في السودان الغربي، لكن دون أن اخفي دور المذهب السني المالكي و أحلل أسباب و عوامل تفوقه و انتشاره على المذاهب الأخرى.

**أولا: الخوارج في السودان الغربي:**

رغم أن المذهب الخارجي كان مشرقي النشأة والظهور إلا أن الخوارج لم يحققوا انتشارا ولا انتصارا إلا خارج بيئتهم المشرقية، إذ أن دورهم الأبرز في التاريخ كان ببلاد المغرب الإسلامي، أين أثّروا في أحواله السياسية و الاقتصادية والاجتماعية منذ القرن الثاني إلى غاية القرن الرابع للهجرة/من القرن الثامن إلى العاشر للميلاد. حيث استطاع الصفرية منذ بداية القرن الثاني للهجرة أن يلهبوا المغرب ضد الولاة الأمويين في ثورة كانت بداية لانتصارات خارجية ستكلل بقيام دول مستقلة عن السلطة المركزية في الشام.

وقد استقطبت هذه الحركات الخارجية العنصر السوداني الإفريقي منذ الوهلة الأولى لظهورها عن طريق أبي القاسم سمكو بن واسول الذي نقل تعاليم الصفرية إلى جماعات السودان القاطنين جنوبي الصحراء مستغلا تواجده بتافلالت(أو سجلماسة) التي تعد محطة للقوافل العابرة للصحراء، فوجد فيهم أتباعا مخلصين فاعتنقوا مذهبه، حتى كان أول أئمة دولته الصفرية بسجلماسة سنة 140هـ/757م، رجلا من السودان و هو عيسى بن يزيد الأسود الذي ولاه أمرهم قبل أن ينكروا عليه.

و يبدو أن السودان قد وجدوا في أفكار الخوارج و مبادئهم متنفسا لهم من النظرة العنصرية التي كانت تلاحقهم، و خاصة مبادئ المساواة و الديمقراطية التي لا تجعل الإمامة والحكم حكرا على العنصر الأبيض من القرشيين كما كان على عهد بني أمية، لذلك كان إقبال العنصر الأسود كبيرا على اعتناق المذهبين الاباضي و الصفري.

و كان لقيام دولتي بني مدرار الصفرية في سجلماسة سنة140هجرية، والرستمية بتيهرت سنة 162هجرية /779م دورا كبيرا في احتكاك السودان أكثر بهذا المذهب بسبب الموقع الجغرافي لكل من سجلماسة عاصمة المدراريين (بنو واسول)، و تيهرت عاصمة الرستميين، و الذي جعل منهما محطتين هامتين لطرق القوافل التجارية الرابطة بين شمال الصحراء الكبرى وجنوبها. بحيث نشطت تجارتهما مع السودان الغربي، و كانت هذه التجارة المتصلة قد حملت معها الإسلام والتعاليم الخارجية إلى ما وراء الصحراء.

فكان التجار القادمين من تيهرت إلى جانب أعمالهم التجارية يقومون بالدعوة إلي الإسلام ، وقد ارتبطت التجارة مع انتشار الإسلام في غرب إفريقيا حيث أصبح من العسير معها وضع حد فاصل بين الدور الذي قام به التجار من جهة وبين دور العلماء ودعاة الإسلام من جهة أخرى ، ويتضح ذلك من تتبع سير الإباضية الذين كانوا يمارسون التجارة يمارسون التجارة على نطاق واسع مع غرب إفريقيا منذ القرن الثاني للهجرة.

و قد أدى استقرار الإباضية على أطراف الصحراء في واحات فزان وجبل نفوسه وغدامس وواحات الجزائر منذ القرن الثاني للهجرة إلي ارتباطهم القوي بتجارة الصحراء ، وعزز ذلك الارتباط اعتناق مجموعات من قبيلتي هوارة وزناتة للمذهب الاباضي، وتخصص كثير منهم بالتجارة عبر الصحراء فوصلوا إلى بلاد كوكو(جاو) ، حيث تذكر المصادر التاريخية أن مخلد بن كيداد أو أبا بزيد (الملقب بصاحب الحمار) زعيم الثورة الخاجية ضد الفاطميين، كان أبوه يتردد على التجارة إلى بلاد السودان، إذ اشترى أمة(جارية) من مدينة تادمكة تسمي سبيكة، و لما حملت منه و لدت له أبا يزيد الذي كان أعرجا و في لسانه شامة، فأخذه أبوه إلى مدينة كوكو(جاو)، و قدمه إلى أحد زعمائها الدينيين(عرّافا) حيث تنبأ له هذا الأخير بأعلى المراتب و الملك. و هو ما يبين بأنه حتى الخوارج الصفرية كانت لهم جالية هناك، ثم توسعت تجارة الصحراء بقيام الدولة الرستمية الإباضية بتيهرت عام 163هـ، فقد أشرفت هذه الدولة على المنطقة الصحراوية ما بين سجلماسة (جنوب المغرب الأقصى ) وزويلة التي دخلت ضمن دائرة نفوذها.

و خلال منتصف القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد قامت هناك مدينة مهمة في جنوب الصحراء شمال شرق منحنى نهر النيجر، و التي عرفت حركة تجارية نشيطة بينها و بين تيهرت وورقلة، و هي مدينة تادمكة التي أصبح يؤمها التجار من شمال إفريقيا، و تحولت فيما بعد إلى محطة هامة لأصحاب المذاهب خلال جهودهم الدعوية في السودان الغربي، خاصة و أن معظم المدن التي تشرف على المداخل الصحراوية إلى بلاد السودان سيطرت عليها الجماعات الخارجية. فقد كانت درعة في يد الخوارج الصفرية، وكان أهل زويلة كلهم إباضية حسب اليعقوبي. كما وجد بالسُّوس ودرعة بعض الشراة الخوارج.

وكان شيوخ الاباضية الرستميين يتوافدون على بلاد السودان في تجارة متصلة حسبما تفيدنا به مصادرهم، فيذكر ابن الصغير بأن الإمام أفلح لما كان صغيرا عزم على السفر إلى جاو بغرض التجارة لكن أباه منعه من ذلك كعقاب له على فشله في الإجابة على سؤال فقهي يتعلق بالربا. وذكر الشماخي في كتاب السير أن أحد شيوخ و علماء الاباضية يدعى أبا صالح كان يسافر إلى غانة بغرض التجارة، وأن شيخا آخر يدعى أبا موسى هارون بن أبي عمران استقر في مدينة غياروالمشهورة بالذهب إلى غاية وفاته.

و قد ساهم هذا التوافد المبكر و النوعي لجماعات الخوارج الاباضية بالسودان الغربي في اعتناق الكثير من مسلمي السودان الأوائل لمذهبهم، فلما زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا سليمان وجد بها قرية صغيرة يسكنها تجار السودان يسمون ونجراتة (أو الونغارا) ، و يسكن معهم جماعة من البيضان يتمذهبون بمذهب الاباضية من الخوارج، و يسمون صغنغو(. وربما انتقل هذا المذهب إلى المناطق الجنوبية للسودان الغربي و خاصة إلى منطقة الغابات أين كان التجار الونغارا السوننكي والديولا المالنكي ينشرون الإسلام وسط سكان الغابات إلى جانب تجارة نواة الكولا.

يظهر إذن بأن تأثير التجار الاباضيين كان واضحا في اعتناق أهل السودان المذهب الاباضي، لكننا نرى بان تأثيرهم كان مقتصرا على الفترات الأولى لدخول الإسلام إلى المنطقة، و كان حكرا على عدد محدود من السودان، و هم طبقة التجار بالدرجة الأولى بحكم احتكاكهم الدائم بهم، بينما لم يبق في عهد ابن بطوطة(القرن الثامن للهجرة) إلا بعض البيضان(ذوو البشرة البيضاء) الذين يكونوا من أحفاد أولئك التجار الاباضيون الذين استوطنوا بلاد السودان خلال القرنين الأول و الثاني للهجرة.

لم تشر المصادر إلى وجود المذهب الخارجي خلال الفترات المتأخرة من تاريخ السودان الغربي، و خاصة بعد ظهور مملكة مالي التي عمل ملوكها من عائلة كيتا على رفع راية المذهب المالكي السني عاليا في سماء السودان الغربي، و اندثرت أمامهم بقية المذاهب الأخرى، باستثناء ما شهدته إمبراطورية سنغاي من أعمال قام بها ملكها سني علي (أو بر علي)، من قتل للعلماء و الصالحين و سفك لدماء المسلمين و استباحة دماهم و سبي نسائهم، و الذي وصفه عبد الرحمان السعدي بالخارجي. و لكننا لا نعلم إن كان السعدي يقصد بكلامه اعتناق الملك سني علي للمذهب الخارجي فعلا، أم أنه مجرد تشبيه بتصرفات الخوارج المتطرفين كالأزارقة و النجدات و غيرها.

وبالرغم من ذلك يبقى دور الخوارج و خاصة الاباضية منهم مهما جدا في التاريخ الاقتصادي و الديني لممالك السودان الغربي، فبفضلهم عرف أهل السودان الإسلام، وعن طريقهم كانت موجة اعتناق الإسلام الأولى في صفوف السودان، فقد أورد لنا البكري قصة ملك ملل(مالي) و هو المسلماني الذي أسلم على يد أحد الفقهاء المقيمين عنده، و الذي نرجح أن يكون من المشايخ الاباضية، لأننا نجد في المصادر الإباضية رواية مشابهة لرواية البكري لكنهم ينسبون أحداثها لأحد أئمتهم و هو علي بن يخلف، إلا أنهم يقولون بأنها حدثت مع ملك غانة و ليس مع ملك مالي.و هذا يعود ربما إلى كون مالي كانت مملكة صغيرة تابعة خلال الفترة التي جرت فيها الأحداث إلى إمبراطورية غانة، و لم تكن قد تأسست الإمبراطورية بعد. كما أن مملكة غانة كانت مشهورة لديهم بحكم العلاقات التجارية و الدبلوماسية التي كانت تربطها بهم. فابن الصغير يذكر بأن الإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب أوفد سفيرا إلى ملك السودان يدعى محمد بن عرفة حاملا معه هدية(**[[1]](#footnote-2)**)**.**

و رغم أن ابن الصغير لم يذكر اسم الملك السوداني لكن فترة حكم الإمام أفلح بن عبد الوهاب (180و220هجرية/796 و844 ميلادية) توافق فترة وجود إمبراطورية غانة كأعظم دولة في السودان الغربي بينما لم تكن قد ظهرت بعد مملكة مالي، و هو ما يجعلنا نميل إلى القول بأن الملك الذي زاره الإمام الرستمي علي بن يخلف هو ملك مالي وليس ملك غانة كما تذهب إليه المصادر الاباضية.

ولقد برز فقهاء الاباضية في ميدان الدعوة بفضل سلوكهم الحضاري الذي أدهش التجار السودانيين و ملوكهم، فقد كانت أخلاقهم الطيبة و حسن معاشرتهم و صدقهم وأمانتهم، تمثل أفضل دعاية للإسلام و للمذهب الاباضي الذي يمثلونه، و هو ربما السبب الذي جعل هذا المذهب يبقى مقتصرا على مناطق تواجد التجار الاباضية دون سواها. وكان تأثيرهم يشمل جوانب العبادات من شهادتين و صلاة و زكاة و حج، دون الجوانب المذهبية التي تخص رأيهم في الإمامة، أو نظرتهم لمن هم على غير ملتهم من المسلمين، وهذا بسبب عدم معرفة السودان بالإسلام من جهة، بحيث لم يكونوا قد استوعبوا بعمق الأركان الخمسة للإسلام ولا يحسنون اللغة العربية كتابة وقراءة، فما بالك باستيعاب الأنساق المذهبية المعقدة كتلك التي يعتنقها الخوارج، و من جهة أخرى طبيعة نشاط أولئك الدعاة الذين كانوا في الأصل تجارا كان همهم الأول الحصول على الأموال الكافية عن طريق التجارة لمواصلة الحرب ضد خصومهم وخصوصا الشيعة، و بالتالي لم تكن للمسائل المذهبية أولوية في دعوتهم.

ومن العوامل التي تبدو أنها ساهمت أيضا في عدم انتشار المذهب الخارجي على نطاق واسع في بلاد السودان و اندثاره فيما بعد، هو لجوء دعاتهم إلى اعتماد أسلوب التقية والكتمان في عملهم بسبب انهزامهم أمام حركة أبو عبيد الله الداعي الفاطمي ثم فشل ثورات كل من أبي يزيد مخلد بن كيداد (صاحب الحمار) سنة 336هـ، و أبي خزر يعلى بن زلتاف سنة 358هـ.

وبالإضافة إلى دورهم الديني في نشر الإسلام، فقد ساهم الخوارج بجانب كبيرا في الجانب الاقتصادي بحكم ممارستهم للتجارة الصحراوية الرابطة بين مدن المغرب الإسلامي و بلاد السودان، خاصة بعدما تحالف الخوارج الاباضية بتيهرت و الصفرية بسجلماسة على احتكار التجارة مع السودان إلى درجة أصبح فيها من الصعب التفرقة بين الاباضية و الصفرية(**[[2]](#footnote-3)**). كما وجد عدد كبير من تجار جبل نفوسة الخوارج في المراكز التجارية السودانية كأودغست رغم معارضتهم لعبد الرحمان بن رستم و ابنه عبد الوهاب من بعده.

فلقد تميزت تيهرت منذ تأسيسها في أواخر القرن الثاني للهجرة بتجارتها مع بلاد السودان، كما جلب الرستميون تجار مصر و افريقية إلى عاصمتهم،التي عرفتازدهارا كبيرا حتى أصبحت تسمى بالبصرة الصغيرة، بالإضافة إلى سجلماسة التي عاصرتها و التي كان أئمتها من بني مدرار يوسعون نفوذهم حتى بلغوا السوس الأقصى تلعب نفس الدور التجاري، و بالتالي شكلت الدولتان الخارجيتان (التي جمعت بينهما صلات عائلية) إمبراطورية تجارية تسيطر على جميع الطرق التجارية القادمة من الجنوب.

و استمرت سيطرة الخوارج على التجارة الصحراوية إلى غاية القرن الثالث للهجرة أين بلغت أوجها، لكن بعد ظهور الدولة الفاطمية في أواخر القرن الثالث للهجرة(296هـ/909م) بدأت مرحلة الانهيار للخوارج، و بالتالي فقدت دورها التجاري خاصة بعدما تحول أهل تيهرت وسجلماسة إلى المذهب السني.

بعد انهيار دول الخوارج في المغرب الإسلامي و أطراف الصحراء تحت ضربات أبي عبيد الله الشيعي، و تفرق أهل تاهارت و سجلماسة في واحات الصحراء، ثم انتهاج الزيريين نفس البطش ضد الخوارج في المغرب الأوسط، قامت هناك ثورتان خارجيتان بقيادة كل من مخلد بن كيداد، و أبي خزر بن زلتاف خلال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد لكنهما منيتا بالفشل، لذلك لجأ الاباضيون في الواحات الصحراوية إلى العمل السري، أو ما يعرف بدور الكتمان الذي استعملوا فيه التقية كأسلوب لعملهم.

و يبدو أن النكسة التي أصابت المذهب الخارجي في شمال الصحراء قد انعكس سلبا على نشاطه في بلاد السودان، حيث لم يعد دور التجار ولا الدعاة الخوارج مسموعا خلال القرن الخامس للهجرة/11م، بالإضافة إلى نشاط حركة المرابطين السنية التي سيطرت على الصحراء و حتى منطقة نهري السنغال و النيجر، فإن الجاليات الخارجية المتمركزة في المراكز التجارية الكبرى لم تعد تملك ذلك الدعم الذي كانت تتلقاه من حكومات تيهرت و سجلماسة قبل ذلك.

لكننا إذا أردنا أن نكون أكثر واقعية فإنه لا يجب علينا أن ننكر وجود بقايا الجاليات الاباضية في السودان الغربي إلى غاية القرن الثامن للهجرة/14للميلاد، حيث يذكر الرحالة المغربي ابن بطوطة بأنه وجد بمملكة مالي في قرية زاغزي التي كان يسكنها التجار السوننكي من الونغارا، جماعة من البيضان(أي من الجالية البربرية) يتمذهبون بالمذهب الإباضي و يعرفون بصغنغو.

و رغم أننا لم نصادف أي مصدر آخر تكلم عن وجود المذهب الاباضي في مملكة مالي باستثناء ابن بطوطة، إلا أن المؤرخ المغربي عبد الرحمان السعدي ذكر بأن ملك سنغاي و سن علي(أو بر علي) الذي اعتلى عرش مملكة سنغاي سنة 869 هجرية كان خرجي المذهب. و هو ما يؤكد بأن تأثير الخوارج في بلاد السودان بقي متواصلا حتى أثناء فترة الكتمان لكنه كان محدودا جدا.

**ثانيا: المعتزلة (الواصلية):**

إن الشيء الأكيد هو أن الطريق الذي سلكته المعتقدات الاباضية و الخارجية سلكته معتقدات ومذاهب أخرى، حيث تكون الواصلية(**[[3]](#footnote-4)**) قد عرفتالطريق المؤدية إلى السودان الغربي منذ وقت مبكر، حيث ظهرت الواصلية بجبل نفوسة على أيدي بعض بربر زناته في فترة حكم الإمام الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم و استغلوا فرصة افتراق الاباضية(**[[4]](#footnote-5)**)بعد وفاة عبد الرحمان بن رستم و ثاروا ضد تيهرت و أنكروا إمامة عبد الوهاب هم أيضا، فبعث إليهم من يناظرهم ثم حاربهم. كما ذكر ابن حوقل خلال القرن الرابع للهجرة/10م بأنه يوجد في كثير من البرانس المقيمين في السوس و أغمات و فاس و إلى غاية سجلماسة أناسا متدينين ورأى في بعضهم بالعلم و الاعتزال، حيث لقي بنواحي زناته نفرا من أصحاب واصل بن عطاء.

يمكن بذلك أن نقول بأنه في وسط التجار الاباضية والسنة الذين كانوا يجوبون الصحراء بغرض التجارة و الدعوة وجد بينهم دعاة و علماء من الواصلية، خاصة بعدما تحالف معهم الاباضية و الصفرية في التجارة الصحراوية المؤدية إلى بلاد السودان و ذلك من أجل التصدي للتجار السنيين.

فبدون شك يكون التجار المعتزلة قد حملوا معهم بعض معتقدات الاعتزال إلى بلاد السودان، لكن يبدو أنهم لم يتمكنوا من نشر مذهبهم في أوساط السودانيين و ذلك لعدة اعتبارات هي:

إن الفترة التي تواجد فيها المعتزلة في أطراف الصحراء و في المراكز التجارية المؤدية للسودان، وهي بين القرنين الثاني و الرابع للهجرة لم يكن الإسلام قد انتشر بعد في بلاد السودان الغربي، إذ أن أول ملك من ملوك مالي أسلم و هو برمندانة (المسلماني) كان خلال القرن الخامس للهجرة، و ملك التكرور وارديابي لم يسلم إلا في سنة في432هـ/1040م(**[[5]](#footnote-6)**).

كما أن سيطرة المرابطين على الصحراء الكبرى و تجارتها خلال القرن الخامس للهجرة تزامن مع سيطرتها السياسية على المنطقة عن طريق ثورتهم المالكية السنية التي لم تترك المجال لأي دعوة أخرى تنافسها، فالحركة المرابطية انطلقت من الصحراء و أغلب نشاطها كانت الصحراء ميدانا له، لذلك لم يكن ممكن لدعاة المعتزلة أن ينافسوا هذا السيل الجارف.

**ثالثا: الشيعة في السودان الغربي:**

لقد حكم الفاطميون (وهم شيعة إسماعيلية) المغرب مدة نصف قرن، حيث استطاعوا أثناء فترة حكمهم المغربية أن يربطوا علاقات تجارية و غيرها مع بلاد السودان الغربي وملوكها، حيث استفاد الفاطميون كثيرا من تجارة السودان التي ساهمت قوافلها في إثراء خزينتها إذ بلغت جباية الضرائب على تجارة القوافل الآتية من السودان خلال القرن الرابع للهجرة أربعمائة دينار سنويا.كما أن المعز لدين الله الفاطمي لما عزم على توجيه حملته إلى مصر رصد أموالا كان مجموعها حوالي أربعة و عشرين مليون دينار كان قد جلبها من بلاد السودان. كما وردت في بعض المصادر السودانية أن أحد ملوك الكانم بالسودان الأوسط يسمى حوا (حكم بين 457 و 460هـ/1064 و 1067م) قد تلقى رسالة مباركة من طرف الخليفة الفاطمي بالقاهرة و الذي قد يكون المستنصر.

فالفاطميون إذن كانت لهم اتصالات و علاقات قوية مع بلاد السودان فيما وراء الصحراء، وهو ما يجدر به أن يترك أثرا مذهبيا في تلك الأراضي، وقد ذكر البكري(كتب مؤلفه خلال القرن الخامس للهجرة) بأنه في بلاد السودان وجدت قرية على ضفاف نهر السنغال تسمى بوغرات يسكنها قبيلة من بربر صنهاجة ، و قد أخبره الفقيه أبو محمد عبد الملك أنه رأى في بوغرات هذه طائرا يشبه الخطاف يفهم من صوته كل سامع إفهاما لا يشوبه لبس كلمة (قتل الحسين) يكرر هذه الكلمة تكرارا ثم يقول (بكربلاء) مرة واحدة(**[[6]](#footnote-7)**).

فهذه الرواية التي نقلها المؤرخ الأندلسي عن أهل بوغرات و فقهائها إنما تدل على وجود التأثير الشيعي في بلاد السودان خلال القرن الخامس للهجرة، لكن ذلك كان بعد رحيل الفاطميين إلى مصر، و باستثناء هذه الإشارة التي زودنا بها صاحب كتاب المغرب، فإننا لم نجد في المصادر الأخرى المعاصرة له أو التي جاءت بعده ما يشير إلى المد الشيعي في بلاد السودان إلى غاية العصور الحديثة، و ذلك على يد جماعة من الباكستانيين والهنود الذين يعتبرون الجالية الشيعية الوحيدة فيها.

ويمكن أن نحصر سبب فشل انتشار المذهب الشيعي في بلاد السودان الغربي في المعارضة التي شكلها الخوارج في المغرب الإسلامي ضد الشيعة و التي مثلت حركة مخلد بن كيداد، والذين لم يكتفوا بمقاومة المذهب الشيعي هناك فقط بل حالت دون انتشاره باتجاه الجنوب، حيث لما أجبر الخوارج الصفرية على الفرار نحو الصحراء بفعل ضربات الفاطميين اتخذوا غدامس و فزان وسدراته ملاجئ آمنة لهم و مستقلة عن نفوذ الفاطميين مما مكنهم من ربط علاقات وثيقة مع دول جنوب الصحراء، و شكلوا معاقل خارجية امتدت على طول الحواف الشمالية للصحراء ،أصبحت بمثابة سدا منيعا في وجه المد الشيعي نحو السودان الغربي.

و بالتالي يكون الخوارج قد عوضوا هزيمتهم على أيدي الفاطميين بالمغرب الإسلامي خلال القرن الرابع للهجرة بحضورهم المكثف و القوي في الصحراء الغربية و السودان الغربي إلى حين انتشار المذهب السني المالكي منذ القرن الخامس.

**رابعا: المذهب المالكي و عوامل تفوقه بالسودان الغربي:**

رغم أن الخوارج كانوا أول من عرف أهل السودان الغربي بالإسلام، و رغم أن دعاتهم هم من رفعوا راية الإسلام الأولى بين طبقة التجار و الحكام في ممالك إفريقيا الغربية، إلا أن المذهب السني هو الذي ساد في آخر المطاف، فقد أكد ابن خلدون هذا الأمر بقوله: (( وأما مالك رحمه الله فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم، إلاّ أنهم لم يقلدوا غيره إلاّ في القليل)).

و يبدو أن انتشار المذهب المالكي و تفوقه على بقية المذاهب الأخرى في السودان الغربي قد تأثر كثيرا بالحركة المرابطية التي ظهرت خلال القرن الخامس للهجرة/11م. ذلك أن عبد الله بن ياسين الذي نشر الدعوة المرابطية في الصحراء الغربية و بلاد السودان الغربي كان سنيا مالكيا، فهو تلميذ الشيخ وجاج بن زللو اللمطي الصنهاجي الذي تخرج من جامعة القيروان عاصمة المذهب السني المالكي في المغرب الإسلامي.

وقد تميز عبد الله بن ياسين بالتشدد في الدين و عدم التسامح مع المخالفين أو المتهاونين مع فروض الشريعة)، وقد استندت أحكام مذهبه إلى الشريعة الإسلامية المأخوذة عن الإمام مالك بن أنس).

أما العامل الآخر الذي ساهم في انتشار المذهب المالكي في إفريقيا الغربية فهو رحلات الحج التي كان يقوم بها مسلمو السودان إلى ارض الحجاز، ذلك لأن المجتمع السوداني خاصتهم وعامتهم يعتبرون أن كل ما جاء من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، من أمور دينية وفقهية هو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولذا تعلقوا بالمذهب المالكي وتشبثوا به ولم يبغوا عنه بديلاً. لذلك وجدنا إقبال ملوك مالي ممن حجوا إلى مكة على جلب معهم كتب الفقه المالكي، فلقد جلب ملك مالي الشهير منسا موسى عند عودته من الحج الفقهاء و الكتب على مذهب الإمام مالك.

ولما حج أخوه من بعده الملك منسا سليمان سنة751 هـ/ 1351م، قرر استغلال فرصة تواجده بمصر لشراء عدد من الكتب لتدعيم مكتبات الإمبراطورية، و خاصة تلك الموجودة بمدينة تمبكتو و ذلك لتعويض ما خربه و حرقه الموسيخلال هجومهم عليها، فكانت الكتب التي جلبها تضم كتب المذهب المالكي.

وقد ساهم التبادل الثقافي الذي حدث بين بلدان دول السودان الغربي و دول المشرق الإسلامي دورا مهما في نشر المالكية فيما وراء الصحراء، حيث حرص ملوك مالي و سنغاي على نقل الإسلام الصحيح إلى بلادهم و نشره بين شعوبهم و ذلك من خلال إرسال الطلبة الأفارقة إلى جامعات الحجاز،القاهرة، فاس و تلمسان من أجل تعميق معارفهم الدينية و يمكن أن نذكر منهم الشيخ العالم أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري الذي درس في الأزهر بمصر و بقي يلقن ما تعلمه إلى غاية وفاته، لهذا قام المصريون بمكافأته على مجهوداته في التعليم ببناء قبة قرب ضريحه ومسجد سمي بمسجد التكروري.و يمكن أن نذكر أيضا الشيخ ابن صبيح بن عبد الله التكروري الكلوتاتي، رشيد عبد الله التكروري، عبد الملك بن علي الكانمي، وغيرهم، وبدون شك فإن هؤلاء العلماء يكون قد تلقوا علمهم الشرعي وفق المذهب المالكي بما أن تلك الجامعات تعد مراكز علمية سنية، وشيوخها الذين نهلوا منهم العلوم الشرعية كانوا سنيين و مالكيي المذهب.

وعموما فإن المذهب السني المالكي أصبح هو المذهب الرسمي للدولة المالية ، ومعتنقيه يدعون "توري" بلغة المالنكي، فخلال وصول منسا موسى إلى القاهرة أثناء رحلته إلى الحج سنة 724هـ/1324م، أرسل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المهمندار في طلبه، وطلب منه السجود و تقبيل الأرض رفض منسا موسى ذلك وقال للترجمان الذي كان يكلمه:« أنا مالكي المذهب، ولا اسجد لغير الله ».

ونشير إلى أنه رغم تردد منسا موسى على مصر، والعلاقات التي كانت تربطه بعلمائها وملوكها، إلا أنه لم يتأثر بالمذهب الشافعي الذي ك ان مذهب المماليك بمصر، وهو ما يفسر بمدى تأثير العلماء والفقهاء المغاربة في الثقافة الدينية لمالي، ومدى تمسك ملوك مالي بالمذهب المالكي، بالإضافة إلى محاولة إظهار استقلالهم عن مصر، بينما لم تتكلم المصادر عن أي أثر للمذهب الشيعي في مملكة مالي.

ولقد كان تأثير المذهب المالكي واضحا في الحياة اليومية لسكان السودان الغربي، فقد كان شيوخ و قضاة مملكة مالي أمثال القاضي الحاج جد القاضي عبد الرحمان بن أبي بكر بن الحاج الذي تولى القضاء بتنبكتو في أواخر مملكة مالي، والقاضي الفقيه محمد الكابري، والقاضي عمر الذي كان قاضيا بتنبكتو أيام الحاج أسقيا ملك سنغاي، وكذا القاضي أبو عبد الله أند غمحمد بن الفقيه المختار النحوي بن أند غمحمد إمام مسجد سنكري، وغيرهم كلهم على مذهب الإمام مالك و يحكمون بفقهه.كما ظهر التأثير المالكي في عبادات أهل السودان الغربي في الصلاة، كالإسبال بعد تكبيرة الإحرام، والنوافل مثل تحية المسجد وغيرها.

وعموما فإنه رغم انتصار المذهب السني المالكي في السودان الغربي، فإن تواجد المذاهب الإسلامية الأخرى في هذه المنطقة كان في وقت مبكر، وهو ما يبين الارتباط العميق بين بلاد السودان الغربي و بقية العالم الإسلامي الذي أصبح جزء منه، فكانت الحياة المذهبية في المشرق و المغرب الإسلاميين تلقي بظلالها على بلاد ما وراء الصحراء، فكانت المذاهب الإسلامية تجوب الصحراء مع التجار والفقهاء كما جابت سلع المشرق والمغرب أسواق تنبكتو، جاو، أودغست، تادمكة، جني وغيرها من أسواق السودان مثلما انتقل التصوف واللغة العربية وغيرها من مظاهر الحياة الدينية والثقافية والعلمية الإسلامية.

**المبحث الرابع**

**دور علما الجزائر في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء**

تعد منطقة الساحل الافريقي أو ما يعرف بالشاطئ الجنوبي للصحراء الكبرى منطقة تماس بين شعوب الصحراء و شمالها مع شعوب الغابات الافريقية مما جعلها تستقطب مختلف التيارات البشرية القادمة من الشمال، و معها ثقافاتهم و لغاتهم و عاداتهم و تقاليدهم و حتى نظمهم السياسية، فامتزج النم الحضاري السوداني الاصيل بالمؤثرات الشمالية.

و لقد كانت شعوب شمال افريقيا اكثر الشعوب احتكاكا بشعوب منطقة الساحل بفعل العوامل الجغرافية و التاريخية فكان التواصل الحضاري بين هذه الشعوب مثمرا من الناحية الاقتصادية و الثقافية و الحضارية عموما. و لقد كانت الجزائر حاضرة في هذه الحركية بشكل مكثف منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد بفعل اهتمامات الائمة الرستميين بالتجارة الصحراوية، ثم استمر هذا التواصل في العصر الحديث ليأخذ شكلا اكثر نضجا و تأثيرا بفضل حركة الدعاة و العلماء والتجار و المتصوفة الجزائريين الذين كان دورهم متعدد الجوانب، و أثرهم اكثر عمقا في مجتمعات الساحل وما جاورهم.

لهذا سنحاول من خلال هذه الدراسة الكشف عن دور علماء الجزائر في منطقة الساحل الافريقي وتحليل أثرهم في المنطقة و كذا المعوقات التي صادفت هذا الدور بعد ذلك.

**أولا: مجهودات علماء الجزائر في نشر الاسلام و ثقافته منطقة الساحل:**

خلافا لفترة العصور الوسطى فإن مراكز الاشعاع الحضاري و النشاط الاقتصادي في الجزائر انتقلت من تيهرت و بجاية في الوسط المناطق الغربية و الجنوبية الغربية بسبب ظهور خطر قبائل بني هلال و تغير جغرافية المسالك نحو الغرب، بالإضافة الى بروز اهمية ممالك الهوسا و مملكة سنغاي في عهد الاسقيين التي جعلت من اقليم توات و تادمكة و الآير نقاط عبور ضرورية لأي حركة بشرية، وحول تلك المراكز الغربية نقاط اشعاع علمي انطلقت منه مؤثرات علماء الجزائر نحو حواضر الساحل كتنبكتو و جاو.

**ثانيا: دور علماء توات في منطقة الساحل:**

تعد منطقة توات من المدن الجنوبية الغربية للصحراء الجزائرية، و هي تابعة اليوم لولاية ادرار الجزائرية. و لقد كان لنخبة هذه المدينة دور كبير في الحركة العلمية في منطقة الساحل، و ذلك بحكم الموقع الجغرافي، والعامل التاريخي، حيث جعل منطقة توات على اتصال مستمر بأهم الحواضر العلمية في بلاد الساحل كتنبكتو، و جاو، و اودغست، إذ كانت توات تشكل منطقة عبور رئيسية لقوافل التجارة والحج القادمة من بلاد السودان، و المتجهة نحو دول المغرب الاسلامي او المشرق**[[7]](#footnote-8)**. كما ساهمت الهجرات المتدفقة من اقليم توات نحو بلاد الساحل دور في نقل الاسلام و التصوف والزوايا و ما ترتب عنها من حركة التعليم و نشر العلوم الدينية، دون اغفال دور تجار توات في مد مناطق صحراء إفريقيا بالأفكار والتعاليم الإسلامية.

لهذا فلقد تحدث السعدي خلال القرن السابع عشر للميلاد/11هجري، عن وجود حوالي خمسين(50) رجلا من اهل توات الصالحين كانوا مدفونين في تلك الفترة بمدينة تنبكتو(**[[8]](#footnote-9)**). حيث اخبرنا بان هناك عدد كبير من العلماء والصالحين التوتيين الذي كانوا في مدينة ولاتة التي ازدهرت قبل مدينة تنبكتو ثم انتقلوا الى تنبكتو بعدما ازدهرت هذه الاخير في عهد الأاسقيا . ومن اشهر هؤلاء العلماء والصالحين القادمين من توات، و الذين كان لهم اثر بالغ في الحياة العلمية في حاضرة تنبكتو نذكر الفقيه العلامة ابي زكريا يحي بن يدير بن عتيق التادلسي (توفي سنة 877هجرية، قاضي توات، و الذي اخذ العلم عن الامام ابن زاغو و غيره، كما تتلمذ عليه الامام محمد بن عبد الكريم المغيلي، ومنهم ايضا العالم سيدي مولاي زيدان، و العالم الحاج احمد بلحاج الامين الملقب بالحاج الغلاوي الذي كان يشرف على ركب الحجيج في بلاد التكرور.

و لقد كان التواتيون يتوافدون علىتنبكتو و جني من اجل النشر الاسلام والتعليم في مساجدهم، كما قربهم سلاطين هذه الحواضر من اجل الافتاء فاغدقوا عليهم بالرواتب و العطايا، فتركوا اثارا عظيمة من مخطوطات و رسائل و تصانيف. كما عكف علماء توات على نشر اللغة العربية التي اصبحت بفضل التجار التواتيون لغة التخاطب في منطقة الساحل كتنبكتو و جاو وحتى كومبي صالح العاصمة القديمة لمملكة غانة الاسلامية، و اصبحت ايضا لغة التدوين ايضا.

و لقد بلغت سمعة علماء توات الى غاية السودان الاوسط أو ما يعرف بالسودان التشادي، حيث تتحدث بعض المصادر عن طلب أحد ملوك بورنو و هو كادي(1440 ـــ 1447م)من علماء توات ليرسلوا الى بورنو بعثات علمية تواتية**،** خاصة بعدما سيطر اليهود على التجارة في توات و لم تعد تقصد قوافلهم مملكة بورنو، بحيث بعث الملك البورني المذكور رسالته الى علماء توات على كل شكوى ليحاول استلطافهم.

كما عرفت تنبكتو وجود عدد من أئمة المساجد التواتيين منهم ابي القاسم التواتيإمام جامع تنبكتو الذي يعد اول من ابتدأ قراءة الختمة في المصحف بعد صلاة الجمعة سنة 102ه/1611م، وقد ابتنى محضرة في قبالة المسجد يعلم فيها القرآن للأطفال، وكان الاسقيا الحاج محمد توري يصلي وراءه ويطلب دعاءه، وحينما توفي في تنبكتو عام 1516م.كما كان للتواتيين بتنبكتو مسجدا خاصا بهم بني سنة 1776م/1190ه، و هناك من يقول قبل ذلك،و لقد بناه الشيخ محمد علي التواتي القادم من بلدة تواتمع جماعة من قومه ، حيث تذكر الروايات سبب بنائه وقوع خلافات دينية بينه وبين بعض اهالي تنبكتو.

لكن الدور الكبير الذي مارسه علماء قبائل توات الجزائرية في منطقة الساحل و بالخصوص في تنبكتو، يبقى بدون منازع من طرف شيوخ الصوفية، و على راسهم شيوخ الطريقة القادرية البكائية، التي انشاها الشيخ سيدي احمد البكاي الكونتي من قبيلة كونته الصحراوية الذي عاش خلال القرن التاسع للهجرة/15م، و حمل راية الاسلام ونشره في صفوف القبائل السودانية في منطقة الساحل، و بعده تمسكت قبيلة كونته بهذا الدور خاصة في عهد ابنه الشيخ عمر.

و يؤكد المؤرخ الفرنسي بول مارتي بأن الرسالة التي ارسلها ملك بورنو الملقب بـ (كادي) او (كانديي) سابق الذكر الى علماء توات كانت موجهة الى الشيخ عمر الكونتي يدعوه فيها و يدعو جميع احفاد الشيخ احمد البكاي الكونتي المقيمين في توات الى عدم التخلي عن تقاليدهم في التواصل مع مملكة بورنو، ويتساءل عن سبب حدوث تلك القطيعة، و لقد منحهم ملك بورنو امتيازات بعدم فرض اي اتاوة او ضريبة على اي شخص يحمل رسالة من طرف الشيخ عمر الكونتي**([[9]](#footnote-10))**. كما عملت الاسر التواتية بدورها على نشر الطريقة البكائية في السنغال و منطقة فوتا جالون و اسسوا مراكز للطريقة في كنكان،و تمبو، و في بلاد المندينغ، و وصلت الى غاية غينيا**)**.

و لم يكتف الكونتيون بهذا الدور الديني بل انهم مارسوا دورا سياسيا ايضا في منطقة الساحل، حيث قام الشيخ أحمد البكاي الذي خلفه اباه الشيخ المختار الكونتي بالتفاوض بشان عقد اتفاق مع حاكم تنبكتو و امير الفلاتة الحاج عمر تال سنة 1844م. حيث كان التواتيون الكونتيون تجارا كبار، الى أن اصبحوا يراقبون و يحرسون جميع الطرق الصحراوية التي تؤدي الى تنبكتو، و كان الكونتيون يتمتعون بسلطة دينية كبيرة في جميع انحاء المنطقة منذ ان أدخل الشيخ سيدي مختار الكونتي الطريقة القادرية البكائية الى منطقة الساحل ،لهذا فلما استولى الفلاتة الذين كانوا يحكمون مسينا على تنبكتو سنة 1826 و كادوا أن يقضوا على تجارتها قضاء نهائيا من خلال ابتزازهم السكان الوثنيين و المسلمين دون استثناء وشملت عمليات النهب تجار توات و غدامس، مما دفع هؤلاء التجار الى الاستنجاد بالشيخ المختار الكونتي(1729 ــ 1830م) باعتباره زعيم الازواد وشيخ البكائيين الكونتيين، و له نفوذ كبير لدى بربر الصحراء، لهذا فلقد هب الشيخ المختار الكونتي لنجدة تجار تنبكتو و سياسيها، و رغم فشله في تحرير المدينة من ايدي الفلاتة لمكنه استغل فرصة وفاة أحمدو شيخو سنة 1845 م ليعقد اتفاق مع خليفته حول مصير سكان تنبكتو.

و لقد نص هذا الإتفاق الذي اشرف عليه الشيخ المختار الكونتي على ان تكون تنبكتو محمية من طرف دولة الحاج عمر تال بماسينا و لكنها تتمتع باستقلال داخلي و يدير شؤونها قاض من اهل تنبكتو، و لا ينقطع هذا العقد الا اذا رفضت تنبكتو دفع الضريبة للحاج عمر.

و رغم ان السلطة الاسمية في تنبكتو كانت بيد أحمدو لبو الثاني(زعيم مملكة حمد الله) الذي اعاد سلطة ماسينا على تنبكتو ، الأ أن السلطة الفعلية بقيت في يد قبيلة كونته و زعيمها سيدي احمد البكاي الكونتي الذي كانت هيمنته تمتد على كافة حوض النيجر، لهذا حاول ربط تحالفات مع البمبارا أعداء الحاج عمر تال و عرض عليهم تأييده المعنوي، كما تحالف مع احمدو لبو الثاني في حمد الله ، بينما كان هو يعرض السلم على الحاج عمر تال. و بهذا تمكن الشيخ احمد البكاي الكونتي من تجميع تحالف ثلاثي تمكن من الحاق هزائم قاسية بالحاج عمر تال الفوتي بين 1863م و1864م، انتهى بفرار الحاج عمر الى كهف ديغمبيرةحيث توفي هناك سنة 1864م. لكن ابن اخيه التيجاني تمكن من امداده بجيش و الحق هزائم بالائتلاف خاصة بعد وفاة سيدي احمد البكاي الكونتي في شهر فيفري 1865م، حيث كان يشكل عماد ذلك التحالف فأعاد التيجاني سيطرته على ماسينا و تنبكتو.

كما تمكن أحمد البكاي بضمان امن الرحالة الألماني هنري بارث عندما زار تنبكتو سنة 1853م ووفر له حسن الاستقبال و الإقامة طيلة مكوثه بالمدينة و المقدرة بثمانية اشهر كاملة**[[10]](#footnote-11)**، وهو ما يؤكد المكانة التي كان يتمتع بها الاوساط السياسية و الاجتماعية لمنطقة الساحل و حوض النيجر.

**ثالثا: دور علماء تلمسان في بلاد السودان:**

كانت تلمسان عاصمة الزيانيين تربطها علاقة صداقة و مودة بملوك السودان الغربي، وذلك منذ عهد ملك مالي المشهور منسا موسى، و كانت الدولتان المالية و الزيانية ترتبطان بعلاقات ثقافية، لما كانت تمثله تلمسان من مكانة ثقافية كمركز إشعاع علمي، حيث كان للنخبة التلمسانية دور كبير في نشر الاسلام و التعليم العربي الاسلامي في مملكة مالي و خاصة في عاصمتها نياني، حيث ذكر لنا ابن بطوطة أن رجلا من نخبة تلمسان يعرف بـ(ابن الشيخ اللبن)، يكون قد درس ملك مالي منسا موسى في نياني لما كان صغيرا، و احسن هذا العالم التلمساني في صغره بسبعة مثاقيل و ثلث، للملك منسا موسى و هو يومئذ صبي غير معتبر، كان يتعلم القرآن و علوم الدين عند هذا الشيخ بمالي. ولما كبر منسا موسى و أصبح ملكا، جاءه الشيخ التلمساني في خصومة فعرفه وقربه منه، و أعطاه عن ذلك سبعمائة مثقال ذهب و كسوة، و عبيدا و خدما و أمره أن لا ينقطع عنه(**[[11]](#footnote-12)**).

و في أواخر الدولة الزيانية، لما كانت الدولة تعيش ظروفا صعبة بعد سقط غرناطة وبداية التحرشات الاسبانية على السواحل المتوسطية ظهر العالم الفقيه الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي كان يمثل اشهر النخب التلمسانية حسبما وصفه ابن مريم بقوله:«...هو خاتمة المحققين الامام العالم المحقق الفهامة القدوة الصالح السني الحبر احد اذكياء العالم وافراد العلماء الفذين أوتوا بسطة في العلم و التقدم و النسبة في الدين»، و كان المغيلي يعيش نفس القلق الذي كانت تشعر بها النخبة التلمسانية خصوصا و العربية الاسلامية عموما بخصوص الظروف التي آلت اليها حالة المسلمين بعد سقوط الاندلس سنة 1492م، وكذا احتلال البرتغال لسبتة و مليلية المغربيتين سنة 1415م قبل ضمها لإسبانيا. وفي ظل حالة الضعف التي استشرت في صفوف المجتمع التلمساني و حتى الامراء و الملوك الذين انغمسوا في الصراعات و الملذات، وجد المغيلي نفسه امام مسؤولية تاريخية، و هي ان يهاجر بعلمه الى افريقيا التي كانت تشهد نهضة حضارية و بحاجة الى النخبة الاسلامية حتى ترسم لها طريق الاصلاح الصحيح و تعرفها بدينها.

و في طريقه الى بلاد السودان مر بمنطقة توات حيث وجد ان اليهود المتمركزين في هذه المنطقة قد سيطروا على تجارة القوافل الصحراوية و بلغوا من النفوذ الاقتصادي و السياسي ما مكنهم من شراء ذمم الحكام و القضاة هناك، كما انتشرت بيعهم و تعالت على مساجد المسلمين و هو ما اعتبره المغيلي خروجا عما هو مسموح به لأهل الذمة، لكن قاضي توات أبو عبد الله العصنوني عارضه، فكاتب المغيلي فقهاء الآفاق، ولما بلغه موافقة بعضهم قام مع أتباعه بهدم تلك البيعة، وألزم اليهود حدهم، وممن عارض موقف المغيلي فقهاء فاس، فحمل متاعه وارتحل إليهم يناظرهم، بعدها عاد الى توات اين خاض معركة تمنطيط ضد يهود توات ثم من توات توجه إلى السودان.

لما وصل المغيلي الى بلاد السودان الغربي كانت شهرته قد سبقته كعالم جليل، حيث عبر بمنطقة الآير في ارض الطوارق و منها الى بلاد الهوصا بنيجيريا حيث استقر بمنطقة تيقيدا التي كانت محطة تجارية و نقطة التقاء القوافل و ارض العلم و الثقافة فاشتغل بالتدريس والوعظ و الإرشاد هناك، بعدها انتقل الى كانو أين التقى بملكها المصلح محمد رمفة فطلب منه طريقة الحكم الإسلامي فكتب له رسالة حول ما يجب على الامير من حسن النية للإمارة و منها الى كاتسينا اين تزوج و أنجب الأولاد، منها انتقل الى ارض سنغاي و زار عاصمتها جاو أين التقى بالسلطان الاسقيا محمد توري فأجابه على عدد من الأسئلة المتعلقة بالحكم الإسلامي.

و عموما فلقد كانت رحلة المغيلي الى السودان الغربي بمثابة نموذج للثورة الإصلاحية التي قام بها واحد من النخبة التلمسانية في هذه الممالك و الشعوب التي كانت قبل رحلته تعيش وضعا دينيا تتخلله التقاليد الوثنية و ممارسات الاسلام السطحي حتى جاء المغيلي فصحح الاسلام و سطر لملوك السودان خريطة طريق لتقويم الحياة الدينية و السياسية والاجتماعية على اسس اسلامية شرعية صحيحة وفق المذهب السني المالي، كما استطاع من خلال احتكاكه بالمجتمع السوداني العميق وممارسته للتدريس من تكوين جيل من الطلبة الذي اخذوا منهجه و علمه، و ساهموا هم بدورهم في نشره أفكاره الإصلاحية و كانت سببا في ظهور حركات إصلاحية عديدة في بلاد الهوسا و ماسينا من بعده. منها حركة الشيخ عثمان دان فوديو في كاتسينا و حركة الشيخ عمر تال في ماسينا.

**رابعا:مظاهر تأثير علماء الجزائر في منطقة الساحل الإفريقي:**

إن الدور الذي كان لعلماء الجزائر في منطقة الساحل الإفريقي لم تقتصر على التواجد السياسية والاقتصادي التجاري، فذلك كان تحصيل حاصل للهجرات والعلاقات القبلية والمصاهرات وللعوامل التي تفرضها قرابة الجوار، لكن مساهمتهم في الحياة الثقافية و الاجتماعية للسودان الغربي كانت واضحة بشكل لا يمكن لأي دراسة ان تتجاهله.

**1.في ميدان التأليف:**

فمن مؤلفات علماء الجزار التي لاقت رواجا و انتشرت في منطقة الساحل و السودان الغربي نجد عقائد السنوسي التي لاقت قبولا واهتماما كبيرين حتى أصبحت تذكر في معظم المقدمات الكلامية لعلم الكلام، حيث كان الشيخ يحظى بمكانة عظيمة لدى علماء الساحل، و كان يعد مؤسس المدرسة الأشعرية اشتهرت بالاجتهاد في تلمسان، لهذا عكف علماء وطلاب بلاد السودان على دراسة مصنفات السنوسي فنالت اهتمامهم و حازت على إقبال كبير عندهم فكانت كتبه تعتمد في الحلقات العلمية في الساحل وبلاد السودان، فحفظوها و فهموها و نسخوها، و لعل اكثر كتبه انتشارا عندهم هي العقيدة الصغرى المساة بــ "**أم البراهين**" التي زودوها بشروح ومختصرات وتعليقات، وقد تردد ومن اشهر من درسها في تنبكتو الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكريالمعروف باسمبغيغ وأخذها عنه تلميذه أحمد بابا حيث قال: « وختمت عليه...صغرى السنوسي »، وقرا عليه "الكبرى" وشرحها في قوله: « وحضرت عليه الكبرى وشرحها» ، ومن العلماء الذين وضعوا عليها شرحا أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت تحت عنوان "شرح السنوسية الصغرى"،وأحمد بابا التنبكتي بعنوان »شرح الصغرى للسنوسي«.

كما انتشرت في بلاد الساحل و السودان الغربي مصنف محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في علم المنطق و خاصة مصنفه المسمى: «منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب» ،الذي كان يدرس للطلبة السواحليين في حلقات التدريس بتنبكتو ،و التي عرفت عند علماء تنبكتو بمنظومة المغيلي في المنطق**([[12]](#footnote-13))** أو رجز المغلي في المنطق، حيث كان يدرسها الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري ودرسها أحمد بابا التنبكتي على يد شيخه حيث يقول: «وقرأت عليه رجز المغلي في المنطق» (**[[13]](#footnote-14)**).

كما ترك كتابا غاية في الأهمية و هو كتاب ما يجب على الملوك و السلاطين والذي يعد مرجعية سياسية لملوك السودان كان قد قدمه لسلطان كانو محمد رمفة، و تضم ثمان أبواب وهي مجموعة من التوصيات و المبادئ التي لابد أن يتبعها أي حاكم يحكم بالشريعة الإسلامية، حيث كتبه بطلب من سلطان مملكة كانو في بلاد الهوسا الذي زاره المغيلي و قرَّبه إليه عين كمستشار خاص للملك، وطلب منه السلطان محمد رمفا مجموعة من النصائح التي تجيز للحاكم ردع الناس عن الحرام، فكتب إليه رسالة تضم مجموعة من النصائح التي تضم تنظيم شؤون الإمارة و الحكم.

و لقد انتشرت هذه الوصايا و هذه الرسالة في كامل بلاد الساحل و غرب افريقيا لدى الحركات الإسلامية التي ظهرت خلال العصر الحديث و اتخذها زعماء هذه الحركات دستورا لهم.

كما لقي كتاب أبي العباس يحي الونشريسي التلمساني (المتوفى سنة 914ه/1508م) المعروف بــ «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب» رواجا في منطقة الساحل و بالخصوص تنبكتو، حيث قام أحمد بابا التنبكتي بترتيبه حسب المواضيع و الأبواب.

**2.في ميدان التعليم**:

إلى جانب انشغال علماء الجزائر بالتأليف في بلاد الساحل عكفوا أيضا على مزاولة مهنة التعليم، فلقد طلب ملك بورنو من علماء توات ارسال بعثات من العلماء التواتيين للاضطلاع بهذه المهمة، فكان من بين هؤلاء العلماء الشيخ محمد الطاهر الفلاتي التواتي إلى جانب تأليفه لعدة مؤلفات في ميدان الفقه و علم الكلام و الشعر، مارس التعليم في بورنو، إلى جانب الشيخ أبي القاسم التواتي سابق الذكر الذي كان يمارس مهنة التعليم في جامع سنكري في تنبكتو.

و لما زار الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي منطقة الآير اهتم بالتعليم و أنشأ مدرسة قرآنية للصغار واخرى للكبار كان يعلم فيهما علوم الدين و اللغة العربية، و لقد تتلمذ على يديه العديد من طلبة الساحل، و الذين أسهموا بدورهم في نشر الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة منهم الشيخ العاقب الغداسي، ومنهم الشيخ شمس الدين النجيب التجداوي.

وقد تأثر عثمان دان فوديو(ت1232ﻫ-1817م) بهذه الرسالة فألف كتابا سماه "**أصول العدل لولاة الأمور وأهل الفضل**" اقتدى فيه اقتداء تاما بكتاب المغيلي لأمير كانو محمد بن يعقوب بل لم يزد عنه شيئا ، ثم انتقل إلى مملكة سنغاي سنة 1502م أين اتصل بالسلطان أسكيا الحاج محمد توي حيث قربه إليه، ووجه له أسئلة تتضمن المشاكل السياسية والدينية والاجتماعية التي تواجه مملكته، فأجابه المغيلي في رسالة بعنوان "**أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي**" كما مر علينا من قبل والتي أصبحت مرجعا لكل حكام منطقة الساحل و إفريقيا جنوب الصحراء فيما بعد.

**3 ـ التصوف:**

من أهم الآثار التي نقلها الجزائريون الى منطقة الساحل خلال تواصلهم قضية التصوف، حيث انتقل شيوخ الطريقة القادرية و التيجانية و السنوسية من المدن الجزائرية نحو منطقة الساحل التي عرفت حواضرها أول الطرق الصوفية المنتقلة إلى إفريقيا. و لقد كانت الطريقة القادرية أول الطرق التي جسدت التأثير الديني للجزائر في دول الساحل.

1. () أخبار الأئمة الرستميين، ص81.  [↑](#footnote-ref-2)
2. () **عز الدين عمرو موسى**، دراسات إسلامية غرب افريقية، مرجع سابق، ص56. [↑](#footnote-ref-3)
3. () ينتسب الواصلية أو المعتزلة إلى أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال، وهو تلميذ للحسن البصري، وأهم ما جاء به هو نفي بعض الصفات عن الله مثل العلم و القدرة و الإرادة و الحياة، كما اشتهر بقضية المنزلة بين منزلتين أي أن صاحب الكبيرة لا =هو مؤمن مطلقا و لا هو كافر مطلقا. (الشهرستاني( أبو الفتح محمد بن عبد الكريم): المل، 1402هـ/1982ميق:محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان،1402هـ/1982م، الجزء الأول، ص48. [↑](#footnote-ref-4)
4. () بعد وفاة عبد الرحمان بن رستم اختلف الناس من بعده حول من يخلفه في الإمامة، فانقسم الاباضية إلى قسمين، قسم يتبع عبد الوهاب بن عبد الرحمان و يدعو إلى مبايعته خلفا لأبيه ، و قسم أنكر بيعة =عبد الوهاب، و يقودهم عيسى بن فندين و لقبوا بالنكارية لإنكارهم بيعة عبد الوهاب، و دخل الفريقان في صراع عرف في تاريخ الاباضية بالافتراق الاباضي الأول. [↑](#footnote-ref-5)
5. ) **البكري** ، المصدر السابق، ص 172.( [↑](#footnote-ref-6)
6. ) **البكري**، المصدر السابق، ص181.( [↑](#footnote-ref-7)
7. () **نور الدين شعباني،** دور عائلة كيتا في مملكة مالي الاسلاميةمرجع سابق، ص192. [↑](#footnote-ref-8)
8. () **عبد الرحمان السعدي**، مصدر سابق، ص128. [↑](#footnote-ref-9)
9. **()Paul Marty**, Op.Cit,p23. [↑](#footnote-ref-10)
10. ()Paul Marty, Op.Cit,p86. [↑](#footnote-ref-11)
11. **() ابن بطوطة** ، الرحلة، مصدر سابق، ص690. [↑](#footnote-ref-12)
12. () **أحمد بابا التنبكتي**: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص142. [↑](#footnote-ref-13)
13. () نفسه، 602. [↑](#footnote-ref-14)